البَابُ الثَّانِي

في خضم الخامس والعشرين من يناير
ومسئولية الأحداث

obeikandl.com

فى خضم الخامس والعشرين ومسئولية الأحداث

لم تكن مظاهرات الخامس والعشـرين من يناير هى أول مظاهرات للشـباب المعارض والغاضب فى مصر ولم يكن الترتيب لها أن تكون آخر مظاهرة، بدليل أن تجمع المعارضة كان يعد لمظاهرات السادس من إبريل على أساس أنها الأكبر دائمًا فى التجمع والمشاركة.

ولكـن التاريـخ يقـول أن مظاهـرات الخامس والعشـرين من يناير ٢٠١١ أخـذت منحىً آخـر ،وكان لها نتائج أخرى، وأهـم هذه النتائج هى توحد كل الشعب مناديًا بسقوط النظام،وكان الهتاف الذى هتف به الشـعب التونسـى في ثورته (الشـعب يريد إسـقاط النظام)، والذى أصبح بعد ذلك هو النشـيد الوطنى والقومى لكل الشـعوب العربية فى المنطقـة وكأن مؤلف هذا الشـعار اسـتلهم كل الماضى واستشـرف المسـتقبل،وحتى هـذه اللحظة لـم نعرف من هو المؤلـف العبقرى وراء هذا الشعار.

إن المتتبـع للأحـداث أثنـاء الخامـس والعشـرين لا يسـتطيع أن يلم بكل ما حدث فى ذلك الوقت لتسـارع الأحداث، ولكن الآن نسـتطيع أن نلـم ولـو قليلاً بما حدث، فقد بدأت أحداث الخامس والعشـرين من ينايـر كأخواتهـا مـن أحـداث التظاهـرات المعارضة فـكان التجمع المنظم والمعد من قبل جماعات المعارضة الشبابية مثل جماعة (كلنا خالد سـعيد)، وشـباب (٦ إبريل)، و(كفاية) وغيرها، وكان الجميع يتوقـع قمعًا مـن الأمن ومعه النظام، وسـقوط بعـض الضحايا ثم تفرق المتظاهريـن فـى مسـاء اليـوم ،وانتهـاء الفعاليات،ولكن هـذه المرة كان تجمعًـا كبيرًا ملحوظًا ومنظمًا وسـلميًا، حتى أن قوات الأمن لم

تتعامـل مع المتظاهرين، وهنا يبدأ أول الخيوط الغامضة، وهو: (لماذا لـم يتعامل الأمن من البداية بالقسـوة المعهودة مـع المتظاهرين ؟) وقد بدا الأمر كما شـاهده الجميع، كيف أن الأمـن يحيط بالمتظاهرين حماية له، وكان الشـكل العام حضارى ولفت انتباه الجميع، ولوحظ أن الأغلبية من المتظاهرين هم من الشباب أبناء الطبقة فوق المتوسطة والمتعلمـة بل ونكاد نقـول أنهم جميعًا من شـباب الانترنت وبرامجه، وكان اسـتعمال الإيميـلات والتواصل بأجهزة المحمـول ظاهرة ملفتة للنظـر، حتـى بـدا أن هنـاك تنظيمًـا وتواصلاً بين الشـباب فـى جميع أماكن التظاهرات والتى استقرت جميعها فى ميدان التحرير.

وهنـا يبـرز السـؤال الثانى: (هـل كان ميدان التحرير رمـزًا متفقًا عليه للتجمع أم أنه جاء بصدفة الأحداث وتواليها؟) .

وبعد ذلك وبمرور الوقت لم نسمع لا عن بلطجة ولا عن شغب ولا عن تيارات إسلامية أو أى صورة من صور الفوضى والعنف .

وفى عصر يوم الخامس والعشـرين لوحظ اسـتعداد كافة القنوات الفضائيـة للتواجـد فى داخل المظاهـرات، وكان الأمـر كما ولو أن الفضائيات كانت على علم مسـبق بما سيحدث وأنها استعدت للحدث استعدادًا كبيرًا.

وهنا يأتى السـؤال الثالث: (هل كانت القنوات الفضائية على علم بما سيحدث وهل كان لها دورًا كبيرًا فى اشعال نيران الأحداث ؟).

وفـى يـوم السـادس والعشـرين والسـابع والعشـرين بـدأت بعـض الجبهـات تتحسـس مكانًـا لهـا فـى الميـدان وبـدا وكأن ميـدان التحريـر كان هـو كلمـة السـر فـي الأحـداث، ورغـم أن الأمـن لـم يكـن تعاملـه على مسـتوى الأحـداث إلا أن مسـتوى العنف فـى تعامل

obeikandi.com

الأمـن قـد إزداد ومعه أيضًا بدأ الخوف يـدب فى قلوب المتظاهرين من الشـباب وذلـك لقلة الخبـرة فى هـذا المجال، وقد صاحـب هذا الأمر دخـول شـباب الإخـوان الملحـوظ إلـى الميـدان وكانـوا كمـن ينفذ أمـرًا بالقتـال، فاسـتأثروا بالمواجهـة وبعجلـة الأحـداث وتزامـن هذا العمـل مـع تزايـد العنـف من قـوات الأمن ، ومـع الغيـاب الملحوظ من أجهزة الدولة الرسمية والحزب الوطنى، وكانت الصورة وكأن الأمن يقف وحيدًا فى مواجهة المتظاهرين من جميع الأطياف.

هنـا يطـل السـؤال الأهـم والرابـع: (أين كانـت أجهـزة الدولة من حكومة وحزب وطنى وديوان الرئاسة ؟).

وتسـتمر الأحـداث ويتبيـن أن المظاهـرات فـى زيادة وانتشـار وأن ميدان التحرير أصبح بؤرة الأحداث وأن تصدى الأمن بقسوته المعهودة لـم يكن كافيًا ، وبدأنا نشـاهد على الفضائيات صور البشـاعة التى يتعامـل بهـا الأمن مـع المتظاهرين كما بـدأت بعض الـدول الصديقة وغيـر الصديقة للنظـام فى التعليق على ما يحدث فـى ميدان التحرير، وبدا الأمر وكأن هناك شيئًا غريبًا يحدث فى مصر .

فـى وسـط هذه الأحداث خرج ديوان الرئاسـة من نومـه وبدأت نغمة نزول الجيش وإعلان حظر التجول ثم تغيير الوزارة وتعيين عمر سليمان نائبا للرئيس فى إعلان واضح بنهاية عهد التوريث لجمال مبارك، وظهر للشعب المصرى أن الموضوع جاد وأن التغيير قادم،

ولكـن حـدث أهم حدث وهو انسـحاب الشـرطة كلية مـن ميدان التحريـر ومـن كل ميادين مصر، وخلو مصر من الأمـن، وما صاحب هـذا الحدث من الانتشـار المنظم للبلطجية والخارجيـن على القانون، والهجـوم على السـجون وأقسـام الأمن وتهريب المسـاجين، ثـم ترويع

الأهالى وسلب وحرق المتاجر والبيوت، وإعلان كل هذا فى الفضائيات فى بث منظم ومبرمج وكأن مصر كلها فى يد عصابات تنشر الفوضى وتروع السكان.

وهنا يأتى السؤال الخامس: (هل كان دور الإعلام والفضائيات مخططًا له فى هذه الأحداث ؟).

وفى هذه الأثناء عاشت مصر لحظة فارقة فى تاريخها، فمصر كلها من الشمال إلى الجنوب أصبحت بلا أمن ولا دولة ، وهنا تجلت العبقرية المصرية التى تظهر فى الشدائد وبدأ الشعب شبابًا ورجالاً ونساءًا فى تكوين لجان شعبية تحمى البيوت والمصالح وكنوز مصر، وكانت أعظم صورة تجمع كل فئات الشعب المصرى وهى تحمى المتحف المصرى الذى يحوى أعظم كنوز التاريخ المصرى، وبدا المشهد وكأن الشعب المصرى يحمى تاريخه وتاريخ مصر.

وقد لوحظ فى كل هذه الأحداث أن الجيش المصرى الذى نزل إلى الشوارع لم يتعامل مع الشعب بالعنف ولم يقف ضد المتظاهرين ولكنه وفى كثير من الأحيان كان يدافع عن المتظاهرين ويحميهم، وبدأت ملحمة (الجيش والشعب إيد واحدة) ولوحظ نزول المشير طنطاوى إلى ميدان التحرير والتقائه بالشعب، وكان هو أول مسئول من النظام يظهر فى الشارع، وبدا ارتياح الشعب لموقف الجيش وقيادته، ولكن ميدان التحرير كان فى غليانه وإصراره وإعلانه عن مطالبته بسقوط النظام ورحيل مبارك، وبدأ مبارك يخاطب الشعب محاولاً ارضائه، ولكن تدخله كان له نتائج عكسية بل كان يزيد من رفض المتظاهرين للنظام والإصرار على رحيله.

وفى هذه الأحداث اتضح للجميع أن رموز النظام من حزب وطنى

ورجال أعمال وأسرة مبارك كلهم مختلفين، وأن الجميع بدأ يفكر فيما بعد رحيل النظام، وكذلك بدا أن الرئيس ضعيفًا، وكأن الجميع يريد أن يستعمله ويستثمره وهو لا حول ولا قوة إلا بالله.

وفى لحظة من لحظات التاريخ وفى الحادى عشر من فبراير خرج عمر سليمان وأعلن تخلي الرئيس عن منصبه وتكليفه للمجلس الأعلى للقوات المسلحة بإدارة شئون البلاد.

وقوبل هذا الأمر بالفرح الغامر فى كل مصر وبدأت نغمة جديدة تنتشر فى مصر وهى (ثورة الخامس والعشرين من يناير ٢٠١١)، وبعد أن سقطت كل رموز النظام، بدأ صعود القيادة العسكرية ومعها صعود رموز ما بعد الخامس والعشرين من يناير.

والسؤال السادس يكون "هل ضعف كيان مؤسسات الدولة وتهميش دورها على مدى الثلاثين سنة الماضية فى أثناء حُكم مبارك، كان من أهم أسباب سقوط نظام مبارك ؟.

إن غباء القيادة السياسية وهِرم الرئيس و أطماع الوراثة لجمال مبارك و تغلغل الفساد كان هو أهم أسباب السقوط للنظام؟ إن الإجابة على هذا السؤال تحتاج لعشرات السنين من التحليل.

بين سياسة القطيع و اختلاف المعايير

لا نختلفُ جميعًا أن الفسادَ فى أنظمة الحكم وخصوصًا فى بلادنا العربية قد زاد عن الحد، وأصبح ظاهرةً تُنبىء بأخطر العواقب، وأقل هذه العواقب خطورة هو ما نراه فى بعض البلدان التى ثارت شعوبها ضد الفساد والغلاء والبطالة مما إضطر رؤسائها بالفرار إلى بلد أو الاستعداد للفرار فى أية لحظة إلى بلدٍ آخر، وهى نتيجة كانت بكل

الحسابات متوقعة ولكنها جاءت أسرعُ مما كنا نحسب، ولا نملك إلا أن ندعو الله أن يحفظ بلادنا من كل سوء ويقدر لها الخير والسلامة.

وحديثُنا ينصبُ على "وجهة نظرٍ" قد تكون خاطئة وقد تكون صائبة، وفى الحالتين فهى وجهةُ نظرٍ تمثلُ اجتهادًا ومحاولةً للفهمِ فى هذا البحر المتلاطم الممتلىء بالغيوم الكثيفة التى تحجب الرؤية، والرياح العاتية التى تعوقُ الإبحار، والأمواج الهائجة التى تزلزلُ السفنَ زلزالاً، وهنا فإن كانت وجهة نظرنا صائبة فقد نلنا ثوابًا واحدًا على الاجتهاد وإن كانت وجهة نظرنا خاطئة فقد نلنا ثوابين والحمد لله.

وللدخول فى صلبِ الموضوع، نتساءل لماذا لا نثورُ فى بلادنا العربية وفى الشرق عمومًا إلا جماعات وليس أفرادًا، ولا نقول راينا المعارض إلا عندما يتكلم الجميع وليس كل واحد يقول رأيه أمام الجميع، لماذا نجيد الحديث عندما يتحدث الجميع ونتلعثم عندما نتكلم فرادى، هل هو الخوف من النظام أم أنه الخوف من تحمل مسئولية الرأى والاختفاء وراء تجمعات الناس؛ وهى ظاهرة عجيبة.

كما أننا ـ جميعًا ـ نكون مع الحكومة ومع النظام عندما نتكلم فرادى وفى نفس الوقت فإننا نكون معارضين للحكومة وللنظام أشد المعارضة عندما نختبىء وراء أى تجمع حتى لا نتحمل أى مسئولية، وهو سلوك معيب وخاطىء بكل الشرائع والقوانين.

لماذا نحن جميعًا شعوبًا وحكومات، معارضين ومؤيدين، مدنيين وعسكريين، أغنياء وفقراء، عاملين وعاطلين، عمال وفلاحين، متدينين وعَلمانيين، يختلف موقفنا باختلاف موقعنا، وذلك بمعنى أننا إذا كنا من المقربين من النظام الحاكم فنحن مع النظام ونؤيد النظام لأننا مستفيدين، وإن كنا من غير المقربين من النظام فنحن نعارض النظام ليس لأنه خطأ ولكن لأننا سنخسر بسبب النظام، وللدلالة

علـى هذا الموقف هو المثال الآتى: إذا كنا متدينين ويحكمنا التدين وأحـكام الدين ولكننا من المقربين المسـتفيدين مـن النظام وكان هذا النظام ملتزمًا بالسـلام مع إسـرائيل فهنا سنتمسـك بمصلحتنا فى القرب من النظام والتشـدق بالآية الكريمة " وإن جنحوا للسِلم فاجنح لها" فنسـتفيد من تأييد النظام ونتمسـك بالدين، أمـا إن كنا من غير المقربيـن مـن النظـام فنعلنها حربًـا دينية علـى النظام ونتشـدق بالآية الكريمة"قاتلوا المشركين كافةً".

وفى الحالتين فالآيتين الكريمتين صواب ولكننا نحن الخطأ رغم أننا متدينين.

وبمناسـبة التديـن والمتدينيـن، ولأن معظـم الحكومـات الجديدة بعـد ثورات الربيـع العربى فى بلداننـا العربية هى حكومات إسـلامية وهى تيار قوى يزداد قوة يومًا بعد يوم، نسـأل سـؤالاً بسـيطًا، وهو أننا وبعد فرحنا بكل الشـباب الذى أشـعل النار فى نفسـه معارضةً للنظام والحكومـة فى ظاهرة متزايدة ومصاحبة بتأييد من الناس، والسـؤال هـو (هل من يشـعل النار فى نفسـه ويمـوت من جراء هـذه النار يكون شهيدًا أم يموت كافرًا ؟).

وقبـل التعجـل بالإجابة نُحبُ أن نتريث ونقـول إنه إن كان قد يئس مـن ظلـم النظام وقرر أن يحرق نفسـه اعتراضًا ومـات فهو قد ارتكب جريمتيـن همـا اليأسُ مـن رحمة اللـه والموت كافرًا وهنـا لا يجب أن نطلق عليـه شـهيدًا، فإذا أيدنا ما قـام به فنحن ضد الإسـلام، وإن لم نؤيـد مـا قام به فنحن ضـد الحكومـات الجديدة وبالتالـى ضد التيار الإسلامى، فماذا يكون الحال إذًا ؟.

وفـى صـورة أخرى وفـى بلدين كبيريـن (مصر والجزائر) وبسـبب مبـاراة فـى كرة القدم وقـف الجميع فى البلديـن حكومة ومعارضة،

متدينين وغير متدينين، فقراء وأغنياء، كل ضد البلد الآخر فى صورة قبيحة تتناسى الإسلام والعروبة والتاريخ والجغرافيا وقلبنا الدنيا ولم نقعدها، كلٌ ينهش فى لحم أخيه الحى وكلٌ نسىَ واقعه المرير.

ونأتى إلى آخر الأمور وهو هل لو تبدلت المواقع وأصبحت الحكومة هى المعارضة والمعارضة هى الحكومة، هل ستتبدل الأحوال أم سيبقى الحال على ما هو عليه لأن الحكومة هى المعارضة ولكن تبدلت المصالح.

إننا جميعًا تحكمنا سياسة القطيع، تلك السياسة التى تعلمناها من عصور الظلم والظلام التى عاشتها أمتنا فبتنا نخاف المسئولية، ولكننا نتكلم فقط من خلال القطيع حيث لا مسئولية ولا يحزنون، كما أننا مصابين بمرض اختلاف المعايير فنكون مع الحكومة عند المصلحة ونكون مع المعارضة أيضًا عند المصلحة، وهكذا فما بين سياسة القطيع واختلاف المعايير نقفُ جميعًا في صف واحد .

معضلة الرئاسة فى مصر

كانت مصر دائمًا وتحت كل الظروف وفى كل زمان هى واحة السلامة والأمن، وكان ذلك واضحًا وضوحًا جليًا فى شكل الحكم وانتقاله فى مصر، فمصر بلد الأمن والأمان والتى أشار إليها القرآن الكريم فى عدة آيات، كان أظهرها قوله تعالى (بسم الله الرحمن الرحيم ،أدخلوا مصر إن شاء الله آمنين) صدق الله العظيم.

فانتقال الحكم كان أساس الطابع الأمنى لمصر حتى فى أوقات الثورات، كان الحكم ينتقل آمنًا وسلسًا بشكل التضاريس المصرية الهادئة والمناخ فى مصر، ومثال ذلك هو ثورة المصريين ضد المماليك وانتقال الحكم بسلاسة إلى محمد على، وكذلك ثورة

الجيش المصرى ضد حكم أسـرة محمد على وانتقال الحكم سـلميًا إلـى محمد نجيب ومـن بعده جمال عبد الناصر، وقد كانت طول فترة الحكم للحكام فى مصر ومنذ عهد الفراعنة هو نظير شؤم فى مصر ولنا فى امتداد حكم محمد على وتدخل الدول الكبرى فى تنازله عن الحكم لإبنه إبراهيم باشا.

وما اشبه عصر مبارك بالبارحة، فمصر كانت تحت حكم مبارك فـى أيامه الأخيرة وهو يخطو نحو عامـه الثلاثين فى حكم مصر وهى فتـرة طويلة فى ميزان الحكم وخصوصًا فى مصر مما فتح الباب على مصراعيـه للمصرييـن كى يدلـوا بدلوهم فيمن سـوف يحكمهم بعد مبارك وقد ناهز الثمانين من العمر بقليل، وبدأت بعض الإشـارات إلى أنه لن يرشح نفسه للانتخابات الرئاسية مرة أخرى، وهى حالة فريدة لم تعشـها مصر من قبل، فالرئيس مبارك لم يختر نائبًا له مثل سابقيه من الرؤساء عبد الناصر والسادات حتى تنتقل الرئاسة بسلاسة.

إن مصر، فى أخريات حكم مبارك، كانت تعيش معضلة كبيرة فى الرئاسـة ففى كل الأحوال كان هناك خطرًا كبيرًا وأحسـب أن المصريين كانوا فى وضع لا يُحسدون عليه.

ولتوضيح هذا الوضع نحلل موقف الرئاسة فى مصر فى ذلك الوقت وهو ما قبل ثورة يناير مباشرة، وقد كانت هناك ثلاثة احتمالات :

الاحتمال الأول: وهو استمرار الرئيس مبارك بصحة جيدة وموافقته على الترشـيح للرئاسـة فـى الفتـرة القادمة فـى نهاية عـام ٢٠١١ وهنا تكـون الحالة أسـوأ، فمبـارك صحيًا لـم يكن ليسـتطع تحمل أعباء الرئاسـة وسـوف تتدخل اليد القوية كى تحكم من وراء مبارك وهذه اليد لن تخاف الله لأنها ليسـت مسـئولة فيكون الوضع من سـيىء إلى

أسوأ، وقد تقوم بعض الصراعات على الحكم ويزداد الوضوع سوءًا على سوء.

والاحتمال الثاني: وهو وفاة الرئيس مبارك فجأة قبل موعد الانتخابات الرئاسية، وهنا تكون مصر بلا رئيس وحسب الدستور يحكم رئيس مجلس الشعب وهو من رجال الرئس مبارك فى ذلك الوقت وسوف يعمل على ترشيح جمال مبارك ابن الرئيس للرئاسة، وقد يقبله الشعب وقد يرفضه وهنا تتدخل القوى الكبرى فى موضوع الرئاسة وتأتى بحل ليس لمصلحة مصر وشعبها ولكن لحفظ مصالحها هى، وهكذا يكون الوضع أسوأ ما يكون فتظهر الصراعات وقد تؤدى إلى انقسام الشعب وتتحول مصر إلى صومال أو حتى عراق آخر.

والاحتمال الثالث: وهو أن تأتى فترة الانتخابات ولا يترشح الرئيس وحتمًا سوف يترشح جمال مبارك عن الحزب الوطنى وحتمًا سوف يترشح آخرون عن أحزاب أخرى أو مستقلين، وقد يكون منهم عمرو موسى والبرادعى وغيرهم، ورغم أن معظم من تم ذكرهم ليس له شعبية إلا عمرو موسى، وإن كنت أعتقد أنه محسوب على الحزب الوطنى وسوف يتم إتفاقًا ما بينه وبين جمال مبارك، وهذه الحالة قد تكون الأقل سوءًا ولكنها أيضًا هى أسوأ من غيرها فباب الصراعات فى كل الأحوال سوف يفتح باب جهنم لمصر وللمصريين.

وبنبض الشعب المصرى كان نداء كل المصريين للرئيس مبارك أن يعين نائبًا له يتولى الحكم فى حالة غيابه ويتم ترشحه للرئاسة ضمن مجموعة من المرشحين وأن يكون تداول الحكم سلسًا وقانونيًا، فنحن فى مصر ومنذ الفراعنة نؤمن بالمقولة الشهيرة وهى (مات الملك عاش الملك) أى نحزن لوفاة الحاكم ونفرح للحاكم الجديد.

وكان لسان حال الشعب المصرى يقول: يا سيادة الرئيس أكتب أسمك فى باب الخلود فى مصر التاريخ وأعلن نائبًا لك، وندعو الله ألا يكون هذا النائب هو جمال مبارك، وإن كان جمال مبارك يرى فى نفسه الكفاءة للحكم فليرشح نفسه وليكن الحكم للشعب.

هكذا نرى كيف كانت معضلة الحكم فى مصر مبارك، فتحت أى ظرف هناك مشكلة وأى مشكلة، ولكن كان قدر الله رحيمًا بالمصريين، فقامت ثورة الخامس والعشرين من يناير وتم حل معضلة الرئاسة فى مصر برحيل مبارك.

ولكن هل استراحت مصر أم بدأت معضلة مصر وليس الرئاسة؟.

obeikandl.com